تأملات معماري.... بين مدينتين

د. وليد أحمد السيد
معماري وأكاديمي – لندن

sayedw03@yahoo.co.uk

اقتربت الطائرة ذات المحركات العملاقة مزمجرة من عليائها كالنسر الجانح محلّقة فوق الساحل الفلسطيني الغربي المطل على البحر المتوسط, ولم أقل "الأبيض" المتوسط إذ كان أسودا في عتمة الليل البهيم, فقد كان موعد وصول الطائرة لمطار الملكة علياء الدولي بمدينة عمان هو منتصف الليل. وسارعت بمد نظري عبر نافذة الطائرة الصغيرة ليقع على مشاهد ليلية ساحرة من وطني الذي لم تطأه قدماي قط.

المدن الفلسطينية الساحلية كانت تتلألأ كحبات اللؤلؤ المنثور بعناية يصل بينها شريط من حبات مضاءة تتلوى عبر السهول والهضاب. كم هي جميلة هذه الأرض المقدسة التي "تدر لبنا وعسلا" والتي دنستها أيدي الطغاة الطامعين بها عبر القرون لترزح في الستين سنة الماضية تحت الإحتلال. وتركت العنان لخيالي ولأفكاري تسبحان في بحار الأنوار المتلألئة بالأسفل. كنت أطالع المناظر الليلية بعيني مخطِط حضري إقليمي. المدينة تبدو كعناصر عضوية مترابطة ولكنها حسية فقط كما تبدو لي من علياء الطائرة. ودار بخلدي أن في داخل هذه البيوت الصغيرة أطفال ونساء وشيوخ ورجال؛ طالب ساهر دارس يحدوه الأمل في أن يبدد ظلمة الحاضر, وأم يذوي كبدها على رضيعٍ باكٍ لها أو غائبٍ أو مريض, وراكع أو ساجد وبائع نفسه فمعتقها أو موبق نفسه فمهلكها - وإن شئت فقل بائع وطنه وأرضه فموبقها. في داخل هذه الارض المقدسة ثمة حياة لا أسمع ولا أرى منها من مكاني شيئا, بيد أن من فطر القلوب التي تنبض بها يعلم ما تخفي الصدور, يعلم سبحانه ويسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. يعلم مناجاة العبد في الظلمات دون أن تنبس شفتاه ببنت كلمة, يعلم ويدبر ويلطف ويقدر, أليس هو سبحانه (كل يوم هو في شأن)؟ في كل لحظة من لحظات الدهر الأبدية السرمدية منذ خلق الخلق كله الى يوم البعث هذا شأنه, يخلق ويرزق ويصور ويبدع, يقيل عثرة ويستر عيبا ويعافي مبتلى ويقبل تائبا ويشفي مريضا ويغني عائلا ويؤوي يتيما ويهدي ضالا ويجيب مضطرا ويكشف سوءا ويعز قوما ويضع آخرين. يسمع ويجيب, يخفض القسط ويرفعه, يرفع اليه عمل النهار قبل الليل وعمل الليل قبل النهار, حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه الكريم ما انتهى اليه بصره من خلقه, ودار بخلدي: كم هي معقدة فعلا المنظومة الأجتماعية البشرية وغيرها من المنظومات "المخلوقاتية"؟ تبدأ من الفرد ومتعلقاته وتتعقد صعودا للأسرة فالقبيلة والمتجاورة وعلاقاتها "الإجتماعية-السياسية" فعلاقات المجموعات والطوائف بالمدينة ثم المدن فالشعب والشعوب؟

وهكذا هناك بيئة وبيئات إجتماعية تتشكل كل لحظة وتنسج التاريخ البشري نسجا محكما بما فيه من معاناة ومكابدة وألم. ويقال أن الجنس البشري يجد "واقعيته" في المعاناة والألم, فهل هذا صحيح؟ وهل المعاناة والألم التي كابدها الشعب الفلسطيني عام 1948 إثر النكبة هي من هذه "الواقعية" المرحلية التي لا بد للجنس البشري أن يمر بها ليعرف حقيقته؟ هل المشاهد الدموية المؤلمة للرحيل القسري ومناظر البربرية الهمجية بالقتل الجماعي والعشوائي على يد عصابات "الأرغون" و"الهاجاناة" اليهودية للشعب القروي الفلسطيني الأعزل هي من هذه "الواقعية" الحتمية؟ وهل المعاناة الإجتماعية والبيئية التي تعيشها بعض أحياء مدينة عمان الفقيرة اليوم هي من هذه "الواقعية" الحتمية للبشر؟ هل مظاهر الفقر "المستحدثة" بين الطبقة المتوسطة بالمجتمع هي من متلازمات هذه "الواقعية البشرية"؟ هل إنزلاقات المجتمع العمّاني, والعربي بعامة, تجاه تداعيات العولمة والحداثة وويلات "التقدم المزعوم" والديمقراطية "المستوردة" للمنطقة العربية هي من مقدرات "الواقعية" البشرية التي لا بد أن نمر بها كبشر مرحليا؟ هل ما مر ويمر به الشعب الفلسطيني والشعب العراقي منذ عقود من ويلات الحروب على أيدي الطغاة من الداخل والخارج في أراضي الهلال الخصيب أو التي تدر عسلا ولبنا هي من هذه "الواقعية" الحتمية التي يجد فيها الجنس البشري ذاته كي يسمو بروحه على "دونية" هذه الدنيا؟ هل خصوبة التربة والبركة التي منحتها أراضي هذه الشعوب العربية هي منحة أم محنة, لعنة أم نقمة, جلبت وما تزال تجلب الطامعين من كل أنحاء العالم؟ كمثل الفتاة الجميلة التي تعيش حبيسة تعاسة جمالها الذي ما فتئ يجلب عليها ما لا تريد أو تتحسب له؟ ما نعلم هو أن لكل شيء وجهان واحد في الشمس والآخر في الظل, والحالة الوحيدة التي لا يكون فيها ظل أو جانب معتم للشيء هو أن يكون شفافا بحيث يخترقه النور. وبقدر ما يكون شفافا, بقدر ما ينجو من مصير ازدواجية النور والظل, أو المعرفة والجهل. يقال في لغتنا الفصيحة: فلان خفيف الظل, إن كان محبوبا, وثقيل الظل, إن كان مزعجا, فهل هذه الإستعارة من باب تلك الشفافية الروحية؟ تساؤلات دارت بخلدي وأنا أحملق مشدوها في الأنوار المنبعثة من المدن الفلسطينية قبل أن تلامس عجلات الطائرة أرض المطار وأعانق أهلي وأحبتي.

مدينة عمان كما هي منذ عقدين من الزمان تسير بتسارع نحو الحداثة والتغيير المطرد. كم هي جميلة ودافئة الجلسات الإجتماعية مع ما يشوب بعضها من آفات إجتماعية تسود مجتمعاتنا بعامة. الحذر والفضول هما أبرز سمتين تمتاز بهما العلاقات الإجتماعية. وإن شئت الدقة فلنقل: الحذر يتبعه الفضول, وإن شئت دقة أكثر وبالبلدي (الحذر ثم "الحِشرية" والتدخل في الخصوصيات). ويبدأ ذلك من الأسئلة "الحِشرية" المتطفلة وانتهاء بالتساؤلات والتدخلات في خصوصيات الغير والتي لا تعني من أطلقها بحال.

بعض مشاهد "التسول العفيف" ينفطر لها القلب. سيدة عجوز لا يبدو عليها العوز ظاهريا تحوم حول بائع العصير في منتصف النهار الحار. خلتها في البداية تبحث عن مكان صندوق الدفع وأنا أتناول كوب عصير التمر هندي, وإذ بها تطلب بصوت خجول منخفض من البائع كوبا تطفئ به رمقها. انتهى الشرب وأعادت الكوب للبائع وبدأت تنسلّ بخفة وصمت. وعلا صوت البائع مستنكرا: عشرة قروش يا حاجّة! لم تدر الحاجّة ما تقول أو لم تسعفها الكلمات فأكملت عملية الإنسحاب ببطء وحياء. فلم يعاود البائع السؤال إذ ادرك حاجتها وليس يبدو عليها من مظاهر العوز. وجدتها فرصة لنجدة الحاجّة والبائع العامل في المحل في آن واحد فامتدت يدي بعشرة قروش للبائع عن كوب العصير للحاجّة, فقال البائع وهو يرمقني بنظرة ناعسة: لا عليك فقد سامحتها. فقلت: لا عليك أنا أريد أن أدفع عنها. وأخذها البائع على مضض, لكني وفي ضميري كنت مشفقا على الحاجّة وعلى المجتمع العمّاني, حيث يدري أو لا يدري الموسرون به ما ألم بمن يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف. وضريبة المال ستدفع إن عاجلا أم آجلا - إن لم يدفعها الموسرون طوعا وفي مصارفها قد يدفعونها كرها فيما لا يتمنى أحد لعدو أو صديق؛ فواتير المستشفيات الخاصة والعلاج والأمراض المزمنة.

في جانب آخر من القارة الآسيوية تتمتع مدينة مسقط بمناخها الحار بما يشبه "الساونا" الطبيعية. ولكنها, كما أدّعي للأصدقاء, ساونا مفيدة وضرورية لفتح مسامات الجسم والعقل والفكر. الشمس غير ضارة إطلاقا مثل شمس لندن الحارقة والتي أسارع للتواري منها. ربما هي فرصتي لزيادة رصيدي من اللون البني المحروق والذي كان وما يزال من علامات الرجولة, إذ كان الرجل فيما مضى يعمل تحت أشعة الشمس "فتلوّح" الشمس بشرته, فيما أصبح البياض من علامة النعومة المرغوبة لبعضهم اليوم.

مثير ونادر أن أصادف بعض الغربيين ممن يعشق الشرق. وقد صادفت بعضا منهم في لندن. والمدهش أن عشقهم للشرق بتراثه وتاريخه يصل الى حد الوله. في مسقط قابلت مستشارة شؤون التراث (مارسيا), التي لاحت بوادر خريف العمر في محيا وجهها, في منزلها الذي لا أعتبره منزلا بل هو متحف للفن التراثي الأصيل. ولوهلة خلت نفسي في منزل حسن فتحي بالدرب الأحمر بالقاهرة الفاطمية أو منزل الفنان حامد سعيد. ولا أدري ما هو سر المرح بشخصيتها, أهو عبق الشرق أم التمتع بالعيش في مسقط للعشرين سنة الماضية؟ كل شئ في بيتها الصغير متوضّع بعناية وعدم إكتراث أو "عفوية" ساحرة. ولجت مع (نيكولاس) الذي اصطحبني للتعريف بيننا - آملا في تعاون مستقبلي في مجال التراث - من الساحة الأمامية للبيت وصولا الى المدخل الأمامي لنجد, وللمفاجأة, الباب الأمامي شبه مفتوح والمفتاح في الباب من الخارج!! شيء من المستحيل أن يحدث في لندن أو الغرب حيث لا أمان بل أقفال محكمة. وعلت وجهي ابتسامة: أنا في لندن تعودت إقفال باب الشقة بالمتاريس المحكمة, بينما (مارسيا) الإنجليزية تعودت عدم إقفال الباب الأمامي للبيت. بقدر ما أنا ذبت في الثقافة الإنجليزية التي تراعي عوامل الأمان, بقدر ما ذابت هي في الثقافة العربية "المسقطية" العمانية!! وتساءلت مع نفسي: من نحن إذن بل أولاد البيئة الإجتماعية التي نعيش والتي تصوغ مفاهيمنا وأبجديات حياتنا الإجتماعية وإدراكاتنا للبيئة الإجتماعية المحيطة التي نشكلها ونتشكل بها؟؟؟

بيت مارسيا ترك أثرا عميقا في نفسي, هو يجسد بيتا عربيا أصيلا بمفاهيمه التقليدية. القليل يعلم بهذا البيت لكن الكثير يجهل ما تعنيه متعة العيش في مثل هذا البيت. كل شيء حولك يذكرك بالتراث وبالتواضع بعيدا عن البهرجة والزخرفة, أو بالمصطلح المصري البلدي "بعيدا عن الهلس والتهريج". أصداف البحر تتناثر في الصحون الصغيرة بأحجامها المختلفة. البسط العربية الأصيلة من منتوجات منسوجات "بني حميدة" للبسط التراثية بالأردن تزدان بها الحوائط, المقاعد المنخفضة ذات الألوان الأرجوانية المتناسقة تملأ البيت. بساطة وجمال! ولا عجب أنها تفضل العمل في البيت ولا عجب أنها قبل شهرين نشرت كتابين عن التراث العماني. وتعجبت: مواطنة إنجليزية بمسقط تعيش التراث العماني فيما يعيش الكثير من العمانيين في بيوت يصممها لهم المعماريون الهنود الذين يكادون يسدون الأفق بمسقط؟!!! ولكن لا عجب إذ نحن في زمن المفارقات والعجائب. ودعت (مارسيا) وبيتها التراثي الذي ترك أثرا في نفسي المحبة للتراث العربي فهو كنز يكاد يندثر في خضم تداعيات الحداثة. ومن المؤسف أننا يجب أن نلتفت لتراثنا من قبل غيرنا إذ كم منا يعيش التراث العربي كما تعيشه (مارسيا) في بيتها وعملها؟